في الموسيقى

إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب

للأستاذ محمد زروقي

سيدي الاستاذ :

لا أدري إذا كانت أعمالك الكثيرة تسمح لك بتوجيه بعض اهتمامك الى ملاحظاتي الآتية ، كذلك لا أدري إذا كانت وجهة نظري تبدو لك على صواب . وبالرغم من ذلك فاني أحسن الظن بك ، وأسجل هنا أني آمل منك أن تتنازل لسماع صوت متواضع من بعيد لشخص من أكثر المعجبين بك والمتحمسين لك

واسمح لي بادىء ذي بدء أن أوضح لك نقطة هامة راجياً منك العفو وحسن القبول

وليس لي أنني أوجه خطابي الجريء الى الأستاذ محمد عبد الوهاب الذي ليس لي شرف معرفته المعرفة الكافية ، ولكني أوجهه الى فنانى المفضل ، الى ذلك الذي كثيراً ما أستمع اليه ، الى ذلك الذي يستطيع — كصديق حميم — أن يفتح لي قلبه بكرم فأرى وأميز قلبي منعكساً عليه

وهنا يخيل إلى أن معرفتي الدقيقة بالفنان — وهي ترجع الى مدة بعيدة — تحتم علي ألا أخفي عنه شيئاً ، وإلا كانت بمثابة خيانة له . كما يخيل الى أن تبادل الشعور يجعل لي الحق ، وربما يتطلب مني البحث عن شيء من أخطائه والاحتجاج على بعض وسائله

بعد ذلك أبدأ — إذا سمحت لي — بأن أعبر عن الأسف الذي يعتورني عند ما أسمع بعض مقطوعاتك المشهورة مثل « في الليل » و « اللي انكتب » باللهجة المصرية ، في حين أن لغة امرىء القيس والمتنبي هي التي كان يجب استعمالها إذا كنا نود أن نهدي الى أحفادنا مثل هذه الأعمال الخالدة . فذلك الذي أودع « يا جارة الوادي » في أسطوانة يجب ألا يتقيد بحدود البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ، وأن يظل ضمن الحدود التي اختطها الفراعنة « فاذا تهم الزجاجة نفسها ما دامت تسكرنا ؟ »

وإني أشارك « نيتشه » رأيه الذي يقول بأن العاطفة يجب أن يعبر عنها الصوت دون غيره ، وألا نعطي للكلام أكثر مما يستحق من الأهمية ، ولذلك فأنني أعطي الموسيقى نفس المرتبة التي يضعها فيها المفكرون : تلك المرتبة التي تحلها محل الكلمات العاجزة عند ما تكون هذه الأخيرة فقيرة وقاصرة أمام مطالب الحساسية القوية

الآن أنتقل الى الغرض الأساسي من خطابي :

حاولت في بحث قصير كان موضوع إحدى المناقشات أن أوجد مقارنة بين الحساسية في الغرب وبينها في الوسط الذي أعيش فيه ، وذلك عن طريق دراسة أقوى وسائل التعبير عنها — ألا وهي الموسيقى — ولكي أعزز مناقشتي لجأت الى الأدب وتاريخه وشخصياته البارزة . وحينئذ أصبحت مدفوعاً الى أن أقرر بأن الغرب قد تأخر الى القرن التاسع عشر ليشهد ازدهار « المذهب الرومانتيكي » أي تلك الحركة الفكرية والفنية التي تشبه أدبنا الى حد بعيد . ولذلك فان أوروبا لم تخلق إلا حديثاً ، وحديثاً جداً من يكمل ما بدأه عمر الخيام والمعري والفردوسي . فالبغتة الحزينة المؤلمة التي بعثها الفيلسوف شنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) هي التي ألهمت كل الموسيقيين الرومانتيكيين ، هؤلاء الموسيقيين الذين عالجوا مسائل القدر المعقدة ، وآلام الانسانية المحكوم عليها بالعذاب . وإن أشهر زعماء التشاؤمين الغربيين ليس لهم أن يعلموا شيئاً ، كما أن شوبان الذي قيل إن « توقيعاته ما هي الا دموع متساقطة على أصابع البيانو » لم يصل مطلقاً الى ما وصلت اليه أغانينا الحزينة حسب رأيي على الأقل

ولاشك في أن الموسيقى ليست عالمية . فلن تستطيع أن تفهم « سيزار فرنك » كما يفهم نفسه أو كرجل مسيحي ، ولا « بتهوفن » بدون دراسة عميقة للفلسفة الألمانية . وانى أحاول في حكمي أن أتناسى الآراء التي انتقلت الى بالوراثة ، وأن أتحاشى التحيز والتعصب في نقدي ، وأنا لا أنكر أن هذا العمل يتطلب مني جهداً عظيماً ، وتسامحاً كبيراً . ولكن دراستي المتواصلة والبعيدة عن المحاباة لشلر ومدام دستايل وشاتوبريان وبيرون وبودلير ، الذين أذكرهم هنا كقادة المدرسة الرومانتيكية ، لا ترسم لنا صورة جديدة أو أثراً يكون أجنبياً عنا جقيقة

بقي علينا أن نتساءل في صراحة : أليست الموسيقى الغربية التي لا تسير الا في المحيط النظري (الينافيزيق) أكثر تأخيراً من موسيقانا ؟

إن أوروبا بمؤلفيها الموسيقيين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين — برغم أعمال ستراڤنسكي — تُظهر تخبطاً لا نهاية له في محاولتها دراسة القضاء والقدر التي تتحكم في رقاب الناس . فاعتبار هذه الحالة درجة من الكمال تستحق أن تحتذى كما يحتذى التقدم العلمي ونظرياته تكون غلطة ما أقبحها من ذلك الشخص الموهوب الذي يصدح على ضفاف النيل . فالبحث كذلك عن مناح جديدة في الألحان الغربية واستخدام وسائل تعبيرها يعد منا رجعة الى الوراء

وقد ظهر لي أن محاولاتك تتجه يوماً بعد يوم نحو توافق الأصوات واخراج مجموعة متنافرة منها في لحظة واحدة وبالتبعية محاولة التعبير عما يضطرم في نفسك مما تستخلصه من ذلك

كانت النغمة الفردية الأوربية دائماً أبداً ضعيفة ، فلا عجب أن نراها تلجأ الى تلك الأصوات المتجمعة ؛ هذه الأصوات تعبر عن أشياء متباينة ، ولكنها تصدر في وقت واحد لتنتج من ذلك تآلفاً فيما بينها . ولا أدل على ضعف السلم الموسيقي الغربي من اقتصاره على استعمال النغمتين فقط (ويلاحظ أن النغمة المنخفضة ترجع الى عرب اسبانيا) في حين أن الفرس في العصور الوسطى قد استعملوا ستا وثلاثين نغمة وأن الأندلسيين استعملوا أربعين منها ، وأن الشرقيين بعكس المؤلفين الموسيقيين الحديثين لم يجعلوا ألحانهم تعتمد على قدرة آلاتهم وعلى الأخص على وضع علامات لها

وليست الرغبة في استعارة آلات موسيقية عجمية « كموسيقى اليد » إلا وقوعاً منا في نفس الخطأ الشنيع الذي وقعوا هم فيه وتجنياً منا على الموسيقى الشرقية

ومهما كانت محاولاتك جريئة وتستحق الاعجاب فيجب أن تعرف — في رأيي المتواضع — كيفية الرجوع الى مصادر الأشياء ، وأن تتساءل عن ماهية العوامل التي تهيء الخلود لفكرة ما ، وأن تفكر في النتائج التي يصح أن تنتظرها من وراء هذا الانتباس . وهنا يجب أن تعترف بأن قوانين الوراثة تلعب دورها الهام : فان « بولدييه » و « برليو » لا ينسبان فضل أعمالهما الى نفسيهما فقط . . . . لأنهما رضعا ألحانهما من ثدي أميهما اللتين حصلتا عليها بدورهما ممن سبقوهما ، وهما ليستا إلا حلقتين من سلسلة طويلة

وليس من الغريب أن نرى وجوه الغربيين عند ما يستمعون الى موسيقانا وقد ارتسمت عليها تلك الابتسامة التي ترتسم على وجوهنا نحن عند ما نستمع الى الموسيقى الأولية . وهناك حقيقة أخرى أكثر خطرا ، وهي أن الأوربيين لا يكادون يفهمون من أنغامنا الموسيقية إلا ما استعرناه منهم ، وحيث أننا لم نوفق في استعارتنا فهم لا يحجمون عن الحكم على الجزء الغربي منه بأنه رديء

وهذا ما يدفعني الى سرد أمثلة من خطواتك المحيرة غير الموفقة : « فبحارة القلجا » أغنية روسية واقعية تعبر عن العذاب العقلي والجثماني الذي كان يعانيه سكان قلب الروسيا ، وقد أخذتها أنت بنفسك في فلم « الوردة البيضاء » وهو فلم شعري خالص : فالشقة بينهما بعيدة بعداً شاسعاً

و « ياشراعاً » وهي قصيدة مقدمة الى الملك فيصل عبارة عن نشيد يراد به مدح بلاد الرافدين ، فهل يصح أن نقبل هذه النغمات التي تحرك العاطفة بدون شك ، ولكنها خالية من الحمية والملاطفة التي يجب أن تكون عند مَنْ يريد أن يمدح ملكا محبوباً يعجب به ؟ ففي هذا النشيد نبحث عبثاً عن الحمية التي نراها في نشيد « Le Marche du Prophéte » لميربير الذي فيه يعبر عن الكثير من العظمة والنبل

وعند ما ننعم النظر في مقطوعاتك الأخيرة نلاحظ في حسرة شديدة بأن « الحركة » قد زادت فيها كثيرا بحيث أن الأذن تتساءل في حيرة عما إذا كنت أنت حقيقة الذي ملأت اسطوانة « أيها العلم الخفاق » رقم ٠٩٩,١٠٤ (١)

(١) هذا الخلط غير المقبول بين ألحاننا والألحان الأوربية مما يستدعي مزيد الأسف وهو في رأيي لا يختلف عن وضع المستردة فوق الكنكسي ليعطي له طعماً شهياً وهذه الحالة تذكرني بالبضائع الغربية الرديئة التي كثيراً ما يضعها أغنياء المسلمين في منازلهم : تلك البضائع التي تتنافر مع بدائع الفن ورائعه ، أو مع سجاد بخارى القديم وسجاد القيروان والرباط والرسوم الدقيقة على النحاس المصنوع في الأندلس وفي سورية

فهل يجب علينا إذن ألا نستوحى شيئاً عن الموسيقى الغربية ؟

لا بكل تأكيد . وليكن ذلك لمجرد الاطلاع فقط . فمن الضرورى أن ندرس هوجو ولامرتين وشكسبير ورابندانا تاجور وإبسن وكبلنج وتولستوى وسرفنتس لكى نفهم الآداب العالمية ، وهذه الدراسة ليست أقل لزوماً من إرسال أبنائنا الى الخارج لتمضية بعض الوقت فى « مدرسة الفنادق فى جرينوبل » أو فى معامل الاختبار للمراكز الصناعية فى « برى » و « برمنجهام » وفى الأحواض البحرية فى « نانت » و « كيل »

ولكى أعزز رأيى هذا أذكر الحقيقة التاريخية الآتية : عندما انتصر هرون الرشيد على الامبراطور نيقفور البيزنطى عام ٨٠٦ ميلادية نص فى معاهدة الصلح بينهما على شرط يلزم المغلوبين بتسليم العرب جميع المؤلفات التى خلفها القدماء والمحفوظات الموجودة فى دور الكتب بالقسطنطينية القديمة . وقد برهن العاهل العربى مرة أخرى على ذكائه الفائق وفهمه للحقائق ، فقدّر أن شعبه يجب أن يتفهم ويستوعب سريعاً كل المعارف التى وقف السابقون على أسرارها ، وأن العرب بدون مساعدة غيرهم لا يمكنهم تأسيس حضارة ثابتة ؛ ولذا يجب عليهم أن يستعينوا بمن تقدموهم من مصريين وكلدانيين ويهود وفرس وهنود ويونانيين ورومانيين وقرطاجنيين ، وأن يستفيدوا من معارفهم ، وأن يتوفروا على دراسة أوراق البردى واللوحات وتماثيل الآلهة . فبعد أن درس العرب العصور السابقة أمكنهم أن يضيفوا معارف من سبقوهم الى معارفهم الخاصة التى ستبقى على مدى الأيام

وكذلك اليابان : فما الذى فعله حزب التجديد عندما تربع فى دست الحكم عام ١٨٦٨ ؟ لقد بدأ بدراسة مبادئ الأحزاب الأخرى فى الدول المتمدينة

فاذا تحدثنا عن القلب ونشاطه والحساسية وطرق التعبير عنها وجدنا الأمر هنا مختلفاً عن ذلك ، وهذه النقطة الهامة هى محور بحثى : فالاحساس المتناهى ورد الفعل وتجسيم التأثيرات النفسانية لا يمكن أن تقارن بالمعارف التى يمكن اكتسابها

وهناك نقوش فرعونية تذكر بعض النصائح الموجهة من أم الى ولدها يوم أن عهدت به الى أستاذه . وهناك نقوش أخرى تعبر عن مثال خالد : ذلك هو ألم الأشخاص المحكوم عليهم بالعمل اليومى الشاق المضنى . فعليك أيها الأستاذ أن تبحث فى زوايا التاريخ عن ألحان أكثر إنسانية ! بل من السهل عليك أن تتخيل الأمهات فى هذه العصور البعيدة وهن يهززن مهود أطفالهن بنفس المحبة والعناية والحنان التى تبديها أمهات العصر الحالى . أليس من الخطل والنفاق أن نعتبر وقع الألم النفسانى الذى عاناه أسلافنا أخف على نفوسهم من وقعه علينا ؟ وإنى لا أجد صعوبة فى أن أتخيل الألحان الجميلة التى كانوا يعبرون بها ويصورون عواطفهم التى تتوثب من الألم

وللرجوع إلى الحديث عن محاولات التجديد أو فرنجة موسيقانا يمكننى أن أضرب مثلاً بأحد موسيقيينا الذى حاول منذ سنوات أن يعبر عن بعض مقطوعاتنا الشعرية بأوزان أوروبية ، فكان سبب نجاحه أنه قد استحدث شيئاً جديداً ولكنه كان نجاحاً قصير الأجل ، وسرعان ما أسدل النسيان ستاره على هذه المحاولة وحسناً فعل . وقد بدأ مغنى الجزائر الحالى أو « كاروزو شمال أفريقية » كما أطلق على نفسه بالقاء مقطوعات تحترم موسيقانا القديمة ، ويجب على أن أشير أثناء حديثى إلى أن طرق التلحين الأندلسية الاثنتى عشرة التى لا زالت مستعملة فى المدن الرئيسة بشمال أفريقية ليست إلا مخلفات وبقايا بالية فى حاجة إلى عيون عالم بالآثار — وأقصد أذان رجل موسيقى — لتكشف فى هذه البقايا عن عظمة المقطوعات التى كانت تردد تحت أبواب الحمراء المرمرية ، أو تحت ظلال الأشجار الوارفة فى اشبيلية وقرطبة (١)

ومهما يكن من شىء فان استعمال هذه المخلفات القديمة لا يدخل كثيراً من التغيير على قواعد الموسيقى ، إذ أن فى ذلك محافظة على تراثنا القديم

ولكن للغرب سحره الأخاذ ما فى ذلك من شك ، لأن

(١) وإنى لا أستطيع أن أتكلم أكثر من ذلك عن الموسيقى الأندلسية وحالتها الراهنة إلا إذا أطلت كثيراً فى ملاحظاتى التى ذكرتها الآن . ومع ذلك فانى أشير هنا إلى أن العرض السريع الذى لم يسبقه تحضير كاف لبعض نماذج من هذه الموسيقى الأندلسية فى مؤتمر الموسيقى الأخير المنعقد بالقاهرة لم يكن عرضاً صادقاً بل خيانة حقيقية لأن الجمهور الذى يجهل ما اكتنف عرضها من عوامل قد نظر إليها نظرة ليس فيها تقدير

مغنينا الجزائرى خضع لتأثير الأوبرا ، واستمع بسرور إلى الألحان القصيرة من الأوبريت والصالات ؛ تلك الألحان التى طغت شيئاً فشيئاً على مقطوعاته حتى أصبحنا الآن نلمس فيها أكبر فشل فنى معيب

وقد سارت المرحومة أنيسة يامنة الجزائرية فى طريق مخالف لذلك كل المخالفة . فهذه الموسيقية انتهجت نهج الغناء القديم الذى يمكن تقدير أهميته ، واستندت إلى شعورها النسوى القوى وخبرتها الموسيقية الطويلة . وكانت تذهب للاقامة بين أفراد الطبقة الفقيرة وبين العرب الرحل لتغترف من شعورهم البسيط الخالى من كل زخرف ثم تعود بمحصول غنى متنوع وفير ، وبعد ذلك تستسلم لتفكيرها ولأبحاثها وتستمع الى نفسها وتستوحى صوت أجدادها ثم تترك قلبها يعبر عما فى خلدها بألحان تخلب الألباب

وإنى أعرف الكثير عن الطريقة المخالفة لتلك التى يتبعها الأستاذ ، وبمعنى آخر ترجمة الغربيين واقتباسهم لموضوعاتنا ؛ وأسوق اليك هنا مثلا مشهورا لأوضح وجهة نظرى : أقام المؤلف الموسيقى سان سانس حقبة طويلة فى الجزائر ، ولذلك يقوم مؤلفه المشهور « شمشون ودليلة » على طريقة التلحين الأندلسية « زيدان » . ولا أتردد فى أن أضيف الى هذا المثل مثلا آخر فيما فعله ف . دافيد الذى أمكنه بعد رحلة طويلة إلى الشرق أن يخرج مؤلفيه : « الصحراء ، ولالاروك » . وكذلك فعل الاسبانيون وكذلك « بيزت » فى « كارمن » (١٨٧٠) وغير هؤلاء من الذين يدينون بالشىء الكثير الى الأندلس فى القرون الوسطى . ومثل هؤلاء أيضا موسيقي وسط أوربا مثل لست وشوبر وموزار وبعض موسيقي أمريكا الجنوبية أيضاً الذين وجدوا فى ألحاننا مورداً فياضاً لا ينضب

والآن أعود متسائلاً إذا كان العكس ممكناً : فتقدم الموسيقى الغربية — فى رأيى — قد بدأ يصل إلى درجة التشاؤم التى تكلمت عنها من قبل . وإنى لا أفكر لحظة فى أن أحط من شأن « الأرلزين وفيدليو ولوهنجرين » ولا أريد إلا أن أضع كل موسيقى فى الوضع المناسب له . وأنى لأذكر هنا ما قاله المسيو « أندريه كوردى » فى مؤلفه « مشاهد الموسيقى العصرية » : صراع دائم .. الموسيقى العربية تحتضر كل يوم بانصالها بالموسيقى الغربية ؛ وستموت الموسيقى الشرقية إن عاجلاً وإن آجلاً إذا لم تثابر على مقاومة الموسيقى الأوربيـة الزاحفة عليها بموسيقى شرقية بحتة

قد أكون فيما كتبته أعبر عن أمنية لى . فالفنان الكبير الذى لمصر فخر الاحتفاظ به ، والذى له تلك المهارة الفائقة التى استطاع أن يهضم بها بعض القطع الخالدة فى الموسيقى الرومانتيكية ، لن يعجز بفضل ما وهبه الله من حسن اختيار أن يوفق فى أعماله القادمة فى مزج الموسيقى العربية بالافرنجية بدلاً من المجهود الضائع فى اخراج ثمرة غير ناضجة لا يهضمها الذوق العربى . وإنى أتمنى له التوفيق المطرد والفوز العظيم

(تلمسان) محمد رزوقى

فرصة أدبية لآخر نوفمبر فقط

كتب بقلم محمد عبد الله عنان

مصر الاسلامية

ثمنه ١٥ قرشاً ويباع بخصم ٣٣٪ أى بـ ١٠ قروش

قصص اجتماعية

ثمنه ١٠ قروش ويباع بخصم ٤٠٪ أى بـ ٦ قروش

ابن خلدون حياته وتراثه

ثمنه ٨ قروش (مجلداً بالكرتون)

وثمن الثلاثة كتب معاً ٢٠ قرشاً أى بخصم ٤٠ ٪

عدا البريد ، وهو قرشان عن كل كتاب داخل القطر وأربعة خارج القطر وللثلاثة كتب ٥ قروش فى الداخل وعشرة فى الخارج ويطلب من مجلة (الرسالة) ولجنة التأليف والترجمة بشارع الكردانى ومكتبة النهضة بشارع الدابغ وباقى المكاتب الشهيرة وطلبات الجملة من المؤلف تليفون ٤٤٦٨٣